العرب
الأحد 2021/10/10
السنة 44 العدد 12205

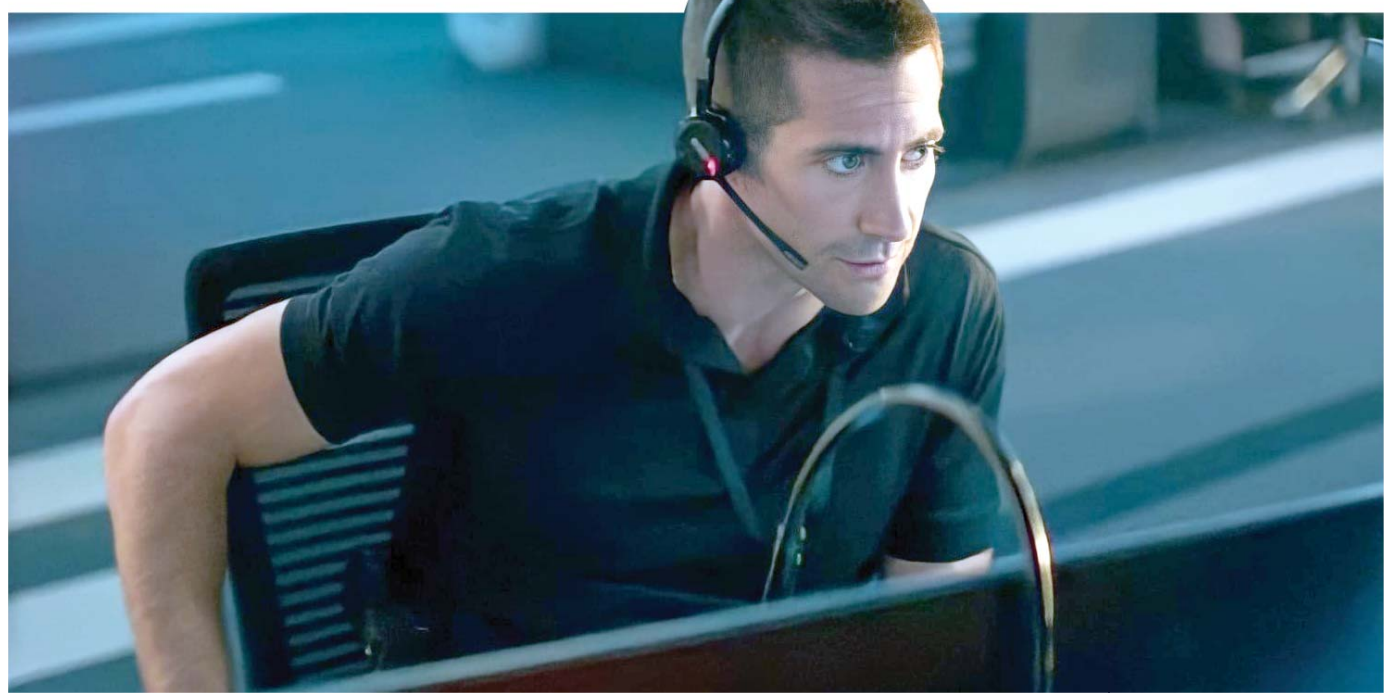

خلف الهاتف تفاصيل وجرائم مروعة

فيلم «المذنب» حكاية مشوقة يحرك تفاصيلها الهاتف

دراما بوليسية تعتمد على الحوار والاتصالات الهاتفية

الحوار أداة طيعة وسهلة في المشهد السينمائي وفي المسار الفيلمي بصفة عامة، وهو أداة يتم توظيفها بمستويات مختلفة ولأغراض مهمة، من أهمها الكشف عن الشخصيات وإضافة معرفة ومعلومات للمشاهد يجد كاتب السيناريو أنها ضرورية وتكمل ما قدمه عبر الصورة، وهو ما نجده سمة بارزة في فيلم "المذنب".

طاهر علوان
كاتب عراقي

لك أن تلاحظ أفلاما ركيزتها الأساسية الحوار الذي لا غنى عنه ولا بديل، وهو الذي يكمل الصورة ويعزز بناءها.

وفي فيلم "المذنب" للمخرج أنطوان فوكوا سوف نلحظ ذلك النوع من الاستخدام المكثف والعميق للحوار الذي لا غنى عنه ولا بديل، والذي بالإضافة إلى المعرفة والمعلومات التي يضخها إلى المشاهد فإنه يحرك عنصر التخيل في تتبع أحداث افتراضية لا تأتي إلا عن طريق الصوت والحوار.

> الخطوط الدرامية سوف تتفاعل دفعة واحدة لنشاهد الشخصية الرئيسية محاطة بقوى ضاغطة ومؤلمة من جميع الجهات

المخرج فوكوا مخرج بارع ومعروف بعدد من الأفلام الرصينة التي قدمها ومنها مثلا فيلم "المعادل" بجزئيه، والذي أدى الدور الرئيسي فيه الممثل المبدع دينزل واشنطن، وله أيضا الفيلم الشهير "يوم التدريب" و"الملك آرثر" و"دموع الشمس" وغيرها من الأفلام، ولهذا لا تقل براعته في إخراج هذا الفيلم عن براعته في إخراج تلك الأفلام سابقة الذكر والتي بقيت راسخة في ذهن المشاهد.

حالات استغاثة

يقدم الفيلم الجديد شخصية الضابط جو بيلور (الممثل جاك بولينهال) الذي يقوم بمناوبة ليلية لتلقي الاتصالات الهاتفية لأناس يحتاجون إلى أجهزة الشرطة لطلب المساعدة، ويقع كل ذلك على خلفية حرائق اجتاحت عددا من الولايات الأميركية وجعلت سكانها في حالة من التوتر والذعر، ولهذا فإن مجرد وجود هذه الأجواء كاف لإضفاء حالة من التوتر منذ المشاهد الأولى للفليم، وهو ما سوف يقع فعلا وما سوف يترتب عليه من ردود أفعال من الجانبين، الشخص المتصل ورجل الشرطة الذي يتلقى الاتصال.

لا تبدو هذه المقدمة والأرضية التي بنيت عليها أحداث الفيلم كافية لتأسيس بناء درامي يرتكز على الحوار ما بين متصل ومستقبل، ما لم تتوفر تحولات درامية تدفع المشاهد إلى الترقب والمتابعة، ولهذا فإن أول ما يتبادر إلى الذهن في هذا النوع من الأفلام هو حالة الاستغاثة التي يلجأ إليها المتصل الذي يقع في مأزق يستدعي طلب النجدة.

وها نحن مع التعاطف الشديد للضابط جاك مع امرأة على الطرف الآخر يفترض أنها ضحية اختطاف، ولهذا يجند إمكانات الشرطة لإنقاذها بكل ما يستدعي ذلك من شد عصبي وتوتر ولحظات ترقب، يضاف إليه ما سوف نكتشفه من معلومات عن طريق الحوار تتعلق بشخصية الضابط ذاته الذي هو بالأساس أحوج ما يكون إلى مد يد العون والمساعدة.

وبذلك تم بث حبكات ثانوية دفعت بالأحداث في هذه الدراما الفيلمية إلى الأمام، فالإشكالية الأولى التي يجد جاك نفسه في مواجهتها هو تأثره العاطفي الشديد من قرار انفصاله عن زوجته وشدة ارتباطه بطفلته التي هي في حضانة طليقته، مما يدفعه إلى الاتصال للحديث مع الطفلة في أوقات غير مناسبة، وهو ما سوف يتكرر في مشاهد متعددة.

هذا التعبير عن الأزمة النفسية والاجتماعية كاف للتأسيس على شخصية تقع في وسط أزمة، ولهذا ليس مستغربا رد فعله تجاه الآخرين وتجاه المتصلين من طالبي المساعدة بحكم عمله في جهاز الشرطة، لكن التحول الدرامي الجذري في هذا الفيلم سوف يظهر بالتدرج من خلال اكتشاف أن جو كان قد ارتكب عملية قتل لشاب أثناء عمله، وأن المرافعة من المتوقع أن تبدأ خلال أربع وعشرين ساعة، وهي المدة التي كان جو يتلقى فيها شتى الاتصالات ويسعى لإنقاذ المرأة المختطفة، التي يظهر في ما بعد أنها مريضة نفسيا وكانت قد أجهزت على طفلها وضربته بسكين بسبب اضطرابها العقلي.

خطوط درامية

كل هذه الخطوط الدرامية سوف تتفاعل دفعة واحدة لنشاهد الشخصية الرئيسية محاطة بقوى ضاغطة ومؤلمة من جميع الجهات تتسبب في انهياره واستسلامه للبكاء، وهو يطالب زميله بقول الحقيقة في المرافعة بعدما كانا قد اتفقا على فبركة رواية موازية.

يعود بنا هذا الفيلم إلى فيلمين آخرين يسيران على نفس ذلك المسار، الأول وهو الفيلم الدنماركي الذي حمل نفس الاسم للمخرج دين سكيلديج، والفيلم الأميركي الذي حمل عنوان النداء أو المكالمة، للمخرج براد أندرسون، وتمثل شخصية الضابط الذي يتلقى الاتصالات الممثلة هال بيري، ونجد أن مسارات الأحداث في هذه الأفلام الثلاثة تلتقي عند نقطة محورية واحدة وهي تلقي الاتصالات من طالبي المساعدة، لكن الأمر المختلف هو الخروج من دائرة ونطاق المكان الواحد المغلق كما في هذا الفيلم الذي نتحدث عنه الآن، بالمقارنة مع فيلم النداء الذي يخرج بنا إلى الخارج ويتتبع المجرم وهو يقوم بعملية الاختطاف وما سوف يلي ذلك من أحداث متصاعدة.

من جهة أخرى تتحول شخصية المتصلة في فيلم المكالمة إلى مساهم فعال في تأجيج الأحداث في مقابل كون الفيلم موضوع المقال يبقي الممثل مستخدما الصوت والحوار والتواصل عبر الهاتف وسيلة وحيدة، إلا أنه ومع ذلك نقلنا إلى أجواء درامية حركت خيال المشاهدين وأضفت متعة على الأحداث.

الشاشات مفتوحة لزوابع السياسة ويومياتهم

ينأى المشاهد من ثقل اليوميات المتكررة التي يعيشها بما يطفو عليها من طفح سياسات ويوميات قاتمة شديدة الرتابة وباعثة على الملل، ومع ذلك بوصف المشاهد مواطنا عاديا فإن السياسة لا تفارق الشاشات التي يشاهدها، فعلاوة على الأحداث والمتغيرات والأخبار السياسية اليومية هنالك متغيرات السياسة المصنوعة جماليا في شكل أفلام قصصها لا تنتهي.

لا شك أن قصص الساسة من التشويق ما يشجع كتّاب السيناريو والمخرجين على الخوض فيها وتجسديها على الشاشات، ولا تكاد توجد شخصية سياسية ذات تأثير محلي أو عالمي إلا ووجد لها نظيرها على الشاشات أو في الأعمال الفنية من رسم ونحن وغير ذلك.

كان صدام حسين وقبيل أن يتسلم السلطة في العراق بالمطلق قد جسد جانبا من حياته السياسية من خلال فيلم "الأيام الطويلة" الذي أخرجه المخرج توفيق صالح، ومن ثم كان هنالك فيلم "ناصر 56 للمخرج محمد فاضل و"أيام السادات" للمخرج محمد خان، وكان ذلك يومها امتداد ليوميات نظام الحكم السائد، لكن في المقابل ظل كاسترو يعلق على الأفلام التي جسدت حياة وكفاح رفيق النضال تشي غيفارا ابتداء من سنة المنفى الوحيدة أواخر الخمسينات والكفاح ضد حكم باتيستا وصولا إلى تفرد كاستروا بحكم كوبا وبقاء تشي ملهما للثوار في أنحاء العالم، حيث رحل وبقيت ذكراه، بينما مضى كاستروا في فصول الحكم وتقلباته وتقلبات السياسة إلى النهاية والعجز.

كان الكوماندات، الفيلم الوثائقي للمخرج البارع أوليفر ستون علامة فارقة في هذا المسار عندما أمضى ستين ساعة في تتبع يوميات كاسترو في العام 2002، وفيها المخرج مولع باليسار فقد نقل يوميات القائد الكوبي، بما في ذلك أصداء الماضي والثورة، على نحو مختلف وشديد الإيحاء.

اللقاء الأول بين الاثنين كان قد جرى على هامش مهرجان هافانا 1986 ليعبر كاسترو عن اهتمامه بأعمال ستون، وخاصة أنه شاهد له فيلمه ذائع الصيت عن قصة الرئيس الأميركي الأسبق جون كنيدي واغتياله.

يتحدث ستون عن أجواء المقابلات والحوار قائلا إنه ليس متأكدا من أنه أنجز فيلما وثائقيا بقدر ما أصبح في حكم تحصيل حاصل أن الفيلم قد رفع الجدار الرابع عن ذلك العالم المغلق الذي كان يحيط بكاسترو، وصولا إلى اليوميات والجدل والمناقشات عن الثورة والثوار وظلال الذكريات مع تشي غيفارا.

> لا تكاد توجد شخصية سياسية ذات تأثير محلي أو عالمي إلا ووجد لها نظيرها على شاشات السينما

يؤكد ستون "كنت صريحا". "لقد قطعته كثيرا، وقمت بقطعه مثل المخرج، غيرت الموضوع عندما شعرت بذلك، كنت وقحا"، شعر ستون أن علاقة أكثر عدائية وازدراء لن تكون مثمرة. يشرح قائلا "إنه خط رفيع، مشابه للخط الفاصل بين المخرج والممثل. إلى أي مدى يمكنك دفع الممثل، دون إغلاق الممثل؟".

يتأمل ستون المشهد باستغراب وهو يطرح سؤالا وجوديا أكثر منه سينمائيا، وخلاصته هي كيف استطاعت كوبا (وكاسترو) البقاء على قيد الحياة بصفتها الخصم الأكثر صعوبة لأميركا يقع على بعد 90 ميلا فقط من الولايات المتحدة لأكثر من 40 عاما؟

الشعاراتية الملازمة للسياسيين تجعل الآخرين يديرون رؤوسهم، ولهذا نجد كاستروا في ذلك الوثائقي يؤكد أن الهدر الحالي للموارد في جميع أنحاء العالم سيؤدي إلى انقراض البشرية.

وما بين ما هو إبداعي وسينمائي يحقق اشتراطات الوثائقي والسيرة الذاتية أحيانا على الشاشات، هنالك فاصلة تتعلق بزوابع السياسيين ونزعتهم المنفلتة غالبا باتجاه تمجيد الذات وتعظيم المنجزات والبحث عن التأثير الجماهيري، وما إلى ذلك من أعراض مشتركة تتفشى في عالم السياسة لتفيض على الشاشات.

* ط.ع

العدالة متوارية على الشاشات وبانتظار النهايات السعيدة

تنهل التجارب السينمائية من الوقائع والقصص الحقيقية ويمنحها ذلك المزيد من المصداقية وقربا من الجمهور العريض الذي ينشد هذا النوع من القصص السينمائية الواقعية.

وما بين ما هو واقعي وما هو افتراضي وجمالي ومتخيل ثمة فاصلة يجب ملؤها بالمزيد من الإتقان في ما يتعلق بالعديد من الشخصيات التي تواجه قدرها، وحيث تتراوح مهارات المخرجين وكتاب السيناريو بين التدرج في كشف الحقيقة وبين منح المشاهدين مساحة من التوشيق، لكي يمضوا في تتبع الأحداث ووصولا إلى النهايات السعيدة.

كان هنالك جدل كبير قد رافق إظهار حقائق الحرب على العراق والتي وصلت إلى المحاكم، ومثال ذلك في المشهد الأول من فيلم "أسرار رسمية"، حيث تقف امرأة أمام محكمة إنجليزية ومحلّفين، ويعلن القاضي سيلا من الاتهامات التي تلاحق تلك المرأة الشابة، ومنها أنها أفشت أسرار الدولة بتعمد، مما يعد إضرارا عن قصد بالدولة ومؤسساتها، ثم يسألها سؤالا محددا، هل تجدين نفسك مذنبة؟

وقبل أن تجيب سوف ينتهي المشهد لنعود إلى الحياة اليومية للسيدة كاثرين غان (الممثلة كيرا نايتلي) وهي بصحبة زوجها ياسر (الممثل آدم بكري)، بينما العالم يكاد يقطع أنفاسه استعدادا لغزو العراق.

وبالنسبة إلى كاثرين فإن العملية برمتها ملفقة تماما وهي ترصد رئيس الوزراء البريطاني الأسبق توني بلير كيف يلقي بالأكاذيب يمينا وشمالا للترويج لفكرة الحرب على العراق.

من جهة أخرى وفي سياق التحوّلات الدرامية بدت جلسات المحكمة أكثر إقناعا لجهة اختيار الممثلين، وفي كل تلك الجلسات كانت كاثرين تواجه مصيرها وقدرها بمفردها دون أن يقف معها أحد، حتى زوجها لم تسمح له بمرافقتها خوفا من القبض عليه مجددا وترحيله، وكذلك أصدقاؤها وصديقاتها، كلهم ابتعدوا عن تلك المواجهة الخطيرة.

على أن ما لم يكن في الحسبان أن تجري تلك المرافعة، فيسحب ممثل الادعاء مرافعته وتتنازل الحكومة عن اتهاماتها لكاثرين بالخيانة وإفشاء أسرار الدولة وسط دهشة الجميع، وحيث خرجت كاثرين بريئة لتؤكد للعالم وأمام الصحافة أنها لو أتيحت لها الفرصة لفعلت ما فعلته مجددا.

لكن العودة إلى كلاسيكيات هذا النوع من الأفلام، ومنها فيلم "اثنى عشر رجلا غاضبون" (1957) من إخراج المخرج المبدع سيدني لوميت، سوف تقدم لنا صورة أخرى لنوع من المحاكمات تصل فيها الشخصيات إلى حافة النهاية كما في إجماع 11 محلفا من أصل 12 على إدانة صبي مهاجر من بورتوريكو بالقتل المتعمد، وهو مثال من أمثلة عديدة لذلك النوع من المرافعات القائمة على حبس الأنفاس وتشريح النوازع البشرية والدوافع السياسية، وغيرها تلك التي تتحكم في هذا النوع من السجالات التي تجري في قاعات المحاكم.

في المقابل فإن فيلم "محاكمة شيكاغو" يقدم عيّنة مختارة من تلك الحقبة من التاريخ المعاصر للولايات المتحدة من خلال سبعة من أشرس المعارضين لحرب فيتنام، والذين انتظموا في تيارات وجماعات مناوئة للحرب، وبما في ذلك تنظيم المظاهرات الحاشدة، وخاصة إبان انعقاد مؤتمر الحزب الديمقراطي في العام 1968. إنه وجه آخر لأميركا شاهده العالم أجمع أو على الأقل سمع عنه، وجهها العنفي وحيث هجمات قوات الأمن ورجال الشرطة والشرطة السرية لا تتوقف عن استهداف التجمعات المناوئة للحرب.

ولتجذير قوة الصراع في تلك المحاكمات التي استغرقت شهورا، فقد حشدت الحكومة من جانبها أعتى أدواتها الاستخبارية وطواقمها من المدعين العامين الشرسين لغرض الإيقاع بالمحتجين وإثبات كونهم مجرد عناصر للشغب والتخريب وتعمّد التصادم مع أجهزة الأمن ورجال الشرطة، يتقدمهم القاضي جوليوس هوفمان (الممثل فرانك لانغيلا) في تجبّره وغطرسته.

يشتبك المعارضون السبعة في صراع لا تعرف نهاياته، لاسيما وأنه يأتي متزامنا مع التغيير الحاد في النظام السياسي بانتهاء حقبة الرئيس جونسون وبدء حقبة الرئيس نيكسون، وما تخلل ذلك من حملات متصاعدة ضد حرب فيتنام، ولهذا يمكن رسم الكثير من ملامح البيوغرافيا الشخصية المرتبطة بزعماء الحراك، والذين ليسوا بالضرورة منسجمين مع بعضهم البعض في أداء مهمتهم.

> دراما المحاكمات تقترب من الشكل المسرحي ولذا فدور المخرج وقبله كاتب السيناريو باتجاه انتشالها من الرتابة

وإذا عدنا إلى الكلاسيكيات أيضا، فإن فيلم "تشريح جريمة قتل" (1959) يقدم لنا دراما اجتماعية مختلفة تختلط فيها الجريمة بدراما المرافعات والمحاكم، وحيث يتولى محامي بلدة صغيرة في ولاية ميتشجان بول بيجلر (جيمس ستيوارت) قضية تتعلق بفريدريك مانيون (بن جازارا) وهو ضابط في الجيش الأميركي متهم بقتل نادل من الدرجة الأولى يعتقد أنه اغتصب زوجته، وحيث يعتمد الفيلم على وقائع حقيقية كان قد سطرها المحامي الشهير جون فويلكر.

في هذه الدراما التي تمتزج فيها دوافع الشخصيات مع نزعة الأخذ بالثأر والمنحى العاطفي والإنساني وكالعادة في السجالات الحامية في أروقة المحاكم، فإن الغموض الذي يكتنف مسار المحاكمة قد دفع إلى المزيد من السجالات المضنية باتجاه الكشف على الحقيقة.

واقعيا إننا أمام مسارات متعددة لدراما متنوعة تقترب من الشكل المسرحي في تطوير لغة الحوار وفي الدراما المتصاعدة، وهنا يأتي دور المخرج وقبله كاتب السيناريو باتجاه انتشال هذا النوع من الرتابة وليس بالضرورة باتجاه النهايات السعيدة، بل باتجاه ما هو أكثر إقناعا.

* ط.ع

أفلام لها حبكة خاصة